

البنائية: المنهج، النظرية

د. تاج محمد، جامعة ابن خلدون، تيارت

ظل الخطاب الأدبي عالما واسعا رحبا، يتململ في جميع الاتجاهات مفتوحا على القراءات والتأويلات خارجا من حين لآخر عن مألوف الدراسات متمردا عن المقاربات التي حاولت فهمه والتقرب منه، لقد استطاع الخطاب الأدبي أن يستلهم عبقرية النقاد الذين شغّبوا معطيائهم المعرفية للقراءة في مناهجها المتعددة سواء أكانت هذه القراءة سياقية أو نسقية .

بعدما حوَصر النص بالإسقاطات النسقية فاعتبر مرة وثيقة تاريخية يعتمد عليها المؤرخ ومرة أخرى يكون عينة تكشف على عصاب المبدع أو تفكك شخصيته، ومرة أخرى مدونة اجتماعية تتخذ الأدب مطية تحل على ظهره المشاكل الاجتماعية .

فالمناهج السياقية على اختلاف منطقاتها وأهدافها تتقاطع في عنصر أساسي مشترك هو أنها تلج النص من سياقه وتتلمس حقيقته من خارجه وتعدّه انعكاسا بكيفية أو بأخرى للمحيط الذي نشأ فيه والظروف النفسية والاجتماعية التي ولد فيها، أو ما يصطلح عليه بالقراءة المعيارية ولعل هذه القراءة هي التي حدت بالقراءة الحداثية إلى البحث عن أدوات جديدة تخلصها من معيارية السياق المقفلة إلى أدوات أخرى أكثر مرونة تلائم طبيعة الخطاب المبدع الذي لا يقبل القراءة التي تقبل فيه الديمومة والحياة بلغة اليقين والحزم. وتدحض مفهوم القراءة العفوية المستندة إلى الضمني وإلى الاستعراف الثقافي، وهو مفهوم يهدف إلى فرض هضم ضمني لأحد النماذج الثقافية⁽¹⁾

القراءة النسقية الحديثة سارت من السياقية المعيارية إلى النصية المتسائلة والتي تتعامل مع النص الأدبي باعتباره عالما مستقلا بذاته يحمل خطابا يتفاعل مع التأويل .

هذه القراءة لم تصل إلى مرحلة النسقية إلا بعد أن جربت مرحلة السياقية بأسسها المعرفية وأدواتها الإجرائية (السيكولوجية- السوسيولوجية- التاريخية) ولعل إفراط المناهج التقليدية في تعظيم فضل السياق على النص، ومن تغيب ملامح هذا الأخير وتذويبها في ثنايا السياقية حتى استحال الخطاب في أسوأ الأحوال جانبا لا حاجة لها به أثناء التأكيد والاستشهاد لذلك ثارت النصانية على نظيرتها السياقية وأدارت ظهرها للسياق وفصله من مرحلة الدراسة واستبعاد اللجوء إلى ما سوى النص وراحت تدعو في أقصى الأحوال إلى موت المؤلف وإرجائه إلى حين

إنّ الحديث عن البنيوية يضعنا في صلب إشكالية تتمحور في نقطتين وذلك بكونها منهجا في التحليل، ومذهبا فلسفيا.

الآن وقد أصبحت البنيوية جزء من تاريخ المعرفة والفكر، ولم تعد تقليعة أو حدثا إعلاميا، فإنّه يمكننا أن نقوم بدراستها دراسة ابستمولوجية وأن نعود من جديد إلى ذلك السؤال الذي صاحب ظهورها وهو: هل البنيوية شكل أم محتوى، نظرية أم طريقة في البحث أم تصور أيديولوجي ؟

والحال فإنّ الاهتمام التفصيلي المنصب على الترتيبات له تاريخ قائم بذاته إلى حد وجود طريقتين لقراءته متباينتين تماما. إحداها تؤيد الموضوعات الدارجة والشائعة، في علاقتها مع المجتمع الذي تظهر فيه، وتوقف لسبب منهجي على الأقل، كل تقويم لمزاعمها (مزايم الموضوعات) وادعاءها قيمة الحقيقة: إنّها قراءة حصرية، تعتبر أنّ البنيوية ليست سوى فكرية (أيديولوجيا)، سوى بديل للوجودية في مرحلة أخرى من تطور القوى المنتجة. أما القراءة الثانية فإنّها تجري على نحو معاكس للأولى: فالتحليل البنيوي هو ممارسة، ونتائجه قابلة للتسجيل⁽²⁾

على الرغم من أن جذور الوجودية تمتد إلى مقابل الحرب العلمية الثانية إلا أنّها لاقت رواجها الأكبر بعد الحرب، ذلك بتركيزها على قلق الاختيار الإنساني وبالتأكيد على المسؤولية والالتزام والحرية وهي اختيارات زادت مآسي الحرب من أهميتها المعرفية والاجتماعية والإنسانية إلا أنّ سيطرة الوجودية على الساحة الثقافية آنذاك ودخولها مجالات جد متنوعة أديا إلى نوع من الرتابة والسطحية في المناقشات وإلى هرم المفاهيم الوجودية ذاتها ولم يفدها محاولة سارتر تطعيمها بمفاهيم ماركسية جديدة في النقد، وهكذا شهدت ضفاف السنين ميلاد مذهب فلسفي جديد يختلف اختلافا جذريا عن الفلسفة الوجودية وهو البنيوية، اختلاف في المنطلقات الفكرية وفي نسق المفاهيم التي يستعملها⁽³⁾

كان ظهور البنيوية في أواخر الخمسينات وبداية الستينات من القرن العشرين كمنهج واتجاه فلسفي جديد، ومع ظهورها احتلت مقولة البنية مكان الصدارة في مجالات وفروع علمية عديدة: الانتروبولوجية، النقد الأدبي، الفلسفة، الابستمولوجيا. وصاحب هذا الظهور بروز شخصيات وأعمال فكرية تعبر عن هذا الاتجاه مثل جاكبسون في اللسانيات وليفي ستروس في الانتروبولوجية ولكان في علم النفس وفوكو والتوسير وصباغ في الفلسفة والابستمولوجيا وأخيرا بارت وغولدمان في النقد الأدبي

لقد ترتب على هذا الظهور المكثف، والمحصور في فترة زمنية محددة - الستينات من القرن العشرين - أن برزت جملة من الإشكاليات والقضايا النظرية والمنهجية الجديدة. صحيح

جامعة بشار _____ مخبر الدراسات والبحوث

أنَّ البنيوية لم تشكل مدرسة واحدة متناسقة بل تعددت اتجاهاتها ومنذ البداية نظرة يسودها نوع الشك رغم الحماسة الإعلامية، ولعل أول القضايا التي أثارها منتقدو البنيوية هي: هل البنيوية منهج أم نظرية ؟ بمعنى هل البنيوية أداة علمية أم نظرية فلسفية وإيديولوجية كباقي الإيديولوجيات الأخرى ؟

بالطبع هنالك اختلافات كثيرة في الطرح والإجابة على هذه القضية، فهناك من لا يرى في البنيوية إلا الجانب النظري، معتبرا إياها مجموعة من النظريات في اللغة والاجتماع والفلسفة، وهي بهذا المعنى مجرد نظرية وإيديولوجية تضاف إلى باقي نظريات إيديولوجيات القرن العشرين وهنالك في الطرف المقابل من لا يرى في البنيوية إلا منهج، ليس أكثر من منهج، وأنها أداة علمية لرفع مستوى العلوم الإنسانية إلى المرتبة العلمية ومن هؤلاء طبعاً زعماء البنيوية، أخيراً هنالك من حاول أن يقدم نظرة نقدية موضوعية للبنيوية، تجعلها منهجاً ونظرية على السواء .

فمثلاً لا يتردد* فرنسو شاتلي على القول بأنه " ليس ثمة منهج بنيوي ...وذلك لأن البنيوية هي أشبه ما تكون بحالة ذهبية مشتركة لأبد من العمل على اكتشاف السمات المميزة لها* فالبنيوية بهذا المعنى نظرية تساهم في الكشف عن مرحلة تاريخية من مراحل الفكر الغربي والفرنسي على الخصوص ولعل ريمون بودون أقرب إلى الوضوح في رفضه للمنهج البنيوي من غيره مؤكداً على الجانب النظري فقط قائلاً (إنَّ البنيوية منظور أكثر منها طريقة والسبب في رأيه يعود إلى أنَّ الثورة المنهجية التي تدعي البنيوية القيام بها، كانت موجودة سابقاً في العلوم الطبيعية والاجتماعية كعلم الاجتماع والاقتصاد

الفكر: ففي مجال الفكر صَنَّف روجيه كريمون (ROGER CREMENT) البنيوية في أنواع: البنيوية المحدثّة لدى ميشال فوكو، البنيوية الثمينة لدى رولان بارت والبنيوية الريفية لدى ميشال سيراس والبنيوية الوضعية الجديدة لدى ألتوسير والبنيوية القلقة لدى جاك دريدا وهذا اختصر الكاتب أهم ملامح البنيوية وإن كانت التسمية لا تهم مادام الهدف واحد .

البنيوية هي تعبير عن مرحلة معرفية هي مرحلة المعاصرة بإرهاصاتهما في جميع المجالات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إذ يفسر البعض ظهور البنيوية على أنَّها تمثيل لواقع أيديولوجي سياسي وحتى اقتصادي وثقافي .

لقد ظهرت البنيوية في الستينات وهي فترة تراجع المد الفرنسي الاستعماري وبداية استقلال الدول المستعمرة (العربية والإفريقية) وكذا هزيمة فرنسا في ديان بيان فو فكان لزاماً عليها استعادة التفوق الفكري، فخذوا النوع من الاستنتاجات طبع أغلب الدراسات التي كتبت

عن البنيوية باللغة العربية عن ميشال فوكو وليفي ستروس، لقد هضمت البنيوية ما سبقها من النظريات والفلسفات الإنسانية المتنوعة⁽⁴⁾

لقد استقلت البنيوية بمصطلحاتها ودراساتها واهتمت بقضايا فلسفية هامة "فهذا ليفي ستروس لا تخلو أعماله العلمية في الانتروبولوجيا من قضايا فلسفية مهمة نشرت في مؤلفاته كما وصفه بول ريكور بأنه كانط القرن العشرين⁽⁵⁾ وكذا الأمر بالنسبة لميشال فوكو والأمر نفسه إلى أغلب البنيويين .

ومن خلال معدنها الفلسفي المجرد اهتدى بياجيه إلى وضع أساسيات تعطي خصائص البنية (الشمولية – التحكم الذاتي – التحول) فتطلق البنيوية من هذه الخاصيات فهي رؤية وطريقة ومنهج ثوري ضد الجمود والخمول الفكري، والقول الثوري هنا لا يعني تغيير المادة كأشياء كاللغة والمجتمع والأدب كقدر ما هو تغيير للفكر الذي يتعامل مع هذه العناصر⁽⁶⁾

المنهاج: في مقابل هذا الرأي الذي يعد البنيوية نظرية ومذهباً فلسفياً هناك من يرى في البنيوية إلا منهجاً وليس أكثر من منهج، وأنها أداة علمية لرفع مستوى العلوم الإنسانية إلى المرتبة العلمية ومن هؤلاء طبعاً زعماء البنيوية⁽⁷⁾

والذين منهم كلود ليفي ستروس الذي اعتبره بعض النقاد من البنيويين الفلاسفة على اعتبار أبحاثه التي تخللتها جوانب فلسفية .

فمن حيث هي منهج فهي " طرائقية تقنية محكومة بالفعل الإجرائي في حدود أدواته وتقنياته⁽⁸⁾ ، هذا الوصف يجعلنا نستشرد على أنّ العلم الحديث ومنذ القرن السابع عشر، لم يتمكن من تحقيق إنجازاته الضخمة إلا بفضل تطبيق النموذج الرياضي على الظواهر الطبيعية، أمكننا أن نحكم بأنّ هذا العلم منذ بدايته (بنيوياً) لأنّه قصد الوصول إلى بناء كامن وراء الظواهر الطبيعية وعبر عنه بلغة رياضية⁽⁹⁾

إذا فالنموذج الرياضي مثل الأدوات الإجرائية في الوصول إلى معرفة القوانين التي تحكم البناء الكامن وراء الظواهر الطبيعية، إذا فالمنهج البنيوي " يستعمل طرائق التقصي المستعملة في الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى من هنا كانت ميزة هذا النهج في تركيزه على وصف الحالة الآنية للأشياء⁽¹⁰⁾

تسعى البنيوية حسب ليفي ستروس إلى إقامة منهج علمي دقيق يحرر العلوم الإنسانية من معياريتها فيقول "إنّ البنيوية تريد أن تكون منهجاً علمياً دقيقاً يماثل المناهج المتبعة في العلوم الدقيقة يدرس العلاقات القائمة بين عناصر أجزاء كل بنية وذلك بتحليل هذا الأخير

جامعة بشار ————— مخبر الدراسات الصحراوية

والكشف عن ارتباطاتها الموضوعية ثم إعادة تركيبها في منظومة كلية جديدة أسى من بنائها الأولى تتيح لنا تبين بنيته الخفية⁽¹¹⁾

فالبنوية حسب ستروس تتم في عمليتين هما: تفكيك البنية إلى عناصرها الصغرى وهي عملية هدم بناء العناصر (إعادة التركيب) من أجل تشكيل نظام أوحده بين هذه العناصر بهدف الوصول إلى الكشف عن البنية العميقة وراء هذا البناء.

يحاول الفيلسوف روجيه غارودي R GAREUDY تقديم نظرة نقدية حول البنيوية يجعل منها منهجا ونظرية في أولاً: فلسفة تقابل صورة العالم كما تتلخص في منتصف القرن العشرين في تطور مجموع العلوم الطبيعية وعلوم الإنسان .

الثاني: أنها منهج للبحث أثبتت تطبيقاته في مختلف المجالات أنها كثيرة الخصوبة⁽¹²⁾ ولعل حقل الأدب كان بما هو لغة أكثر الحقول إخصاباً وتطبيقاً لتوجه المنهج البنيوي، لقد طبقه غير واحد من نقاد الأدب والمشتغلين به، فنجد أسماء مثل (رومان جاكبسون - رولان بارت - ترفيتين تودوروف - الجيراس جوليان جريماس - جيرار جينات - مايكل ريكتر - جون كوين - مولينو - روبرت شولتز - سيمور شاتمان وأسماء كثيرة حاولت تطبيق المنهج البنيوي على الأدب، لقد حاول البنيويون ربط الأدب باللغة تارة، وبالعالم تارة أخرى، وبالنظر إلى أبنيته الأساس التي يقوم عليها زخمه المتعاضم، لقد تم تحويل الشعور إلى شيء وفصل عن المجتمع وذلك بالتقليل إلى درجة حادة من وظيفة اللغة في الإحالة والمحاكاة أو تذويبها وذلك لدى جاكبسون وريفاتير - على اختلافهما وخاصة ريفاتير الذي أشتكى كللر وشولز وجولين من توجهاته الشكلية وباكسون في سميوطيقا الشعور غير أن البعض الآخرين لا يدرسون الأدب إلا بكونه مرتبطاً بالمجتمع، وعلى أية حال فإن حركة هائلة قامت حول دراسة الأدب في رحم البنيوية والسميوطيقا بما يصعب إيجاز أو عرض ما تم بأكمله، وكمثال على ذلك رومان جاكبسون الرجل الثاني الذي فعل أكثر من غيره للحفاظ على دعوى المناهج اللغوية البنيوية في دراسة الأدب والاعتماد على مقولات اللسانيات الوصفية لغة النصوص الأدبية وإظهار خصائصها وتوسيع تلك الخصائص وإعادة تنظيمها، وتنطلق مقولاته من أن الأدب في مقامه الأول لغة وأن البنيوية منهج يتخذ من علم اللغة أساساً له، لذلك يعمد إلى تطوير ثنائيات (التأليف والاختيار)، وينصب عمله بشدة في البحث عن تحقق الوظيفة الشعرية في اللغة داخل الأدب .

القراءة البنيوية في المجال الأدبي، كانت مرتكزة أساساً على علمي النقد والألسنية بشكل كبير، وعرفت انطلاقها الأولى مع الشكلايين الروس الذين اهتموا بشكل النص الأدبي أو

بأدبية الأدب، وتميزه بخاصية الإنشائية أو الأدبية وأهم روادها فكتور شيكلوفسكي – رومان جاكسون – بويرس إخنباوم – واوسيب يارك – ويوري تينيانوف .

وبعرض جاكسون في احد مقولاته عن هدف هذه المدرسة وتصورها للأدب بقوله: إنّ هدف علم الأدب ليس الأدب في عمومه، وإنّما أدبيته أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه علما أدبيا⁽¹³⁾

أسس القراءة البنيوية: تقوم البنيوية على مجموعة من الأسس الفلسفية والفكرية التي وضعها أصحابها في النقد الأدبي، سواء من حيث نظرتهم النقدية الجديدة للنصوص أو رفضهم لنظريات ومفاهيم نقدية سابقة.

1- الاهتمام بالشكل: النص في البنيوية بنية لغوية ودلالية قائمة بذاتها لا دخل لأي عامل خارجي في إنشاءها، وبالتالي فهو مجموعة من العلامات والرموز التي ترتبط فيما بينها بعلاقات، وتختلف هذه العلاقات باختلاف مستويات اللغة، بمعنى أنّ التحليل البنيوي للنصوص هو وضع لقوانين التعبير الأدبي. ولهذا " يرى رولان بارت وتودوروف وهما ومن أبرز رواد النقد البنيوي أن هذا التعرف على بنية النص مقصود لذاته لأنّه عقلانية النظام الذي يلتحم في عناصر النص مجتمعة تحدث بديلا عن عقلانية الشرح والتفسير " ⁽¹⁴⁾

وبهذه النظرة الشكلية للنص، درست القراءة البنيوية النصوص الشعرية والسردية على أنّها بناء من المستويات وتتفق هذه الأخيرة وتختلف حسب طبيعة النص، فمثلا في تحليل قصيدة شعرية "فأنّه يمكن أن ندرك أنّ البنية الدلالية للقصيدة الشعرية مثلا هي محصلة مجموعة من البنى المتمثلة في البنية الإيقاعية والتركيبية والتعبيرية والتخييلية التي تصل إلى ذروتها للمستوى الرمزي الكلي ⁽¹⁵⁾

2- رفض المرجعية التاريخية والإيديولوجية: جاءت البنيوية كرد فعل مناقض للمناهج السابقة التي حصرت الأدب في إطار محيطه وأسبابه الخارجية، والتفسير السياقي للنصوص الأدبية الذي ابتعد عن النص وشكله الأدبي والجمالي الذي وجد لأجله، فالنص الأدبي له وجوده الخاص، له نظمه وقوانينه التي تحكم هذا الوجود وهذا ما دفع بالبنيوية إلى رفض التاريخ كمرجع لتحليل النصوص "فنادت بموت التاريخ الذي كانت الماركسية قد روجت له، من بعض الوجوه ببلورة نظرية المادية التاريخية ⁽¹⁶⁾

3- مبدأ التزامن والتعاقب: إنّ الدراسة التزامنية كان لها الفضل في الفصل بين دراسة النص الخارجية والقراءة البنيوية الداخلية، فالبنيوية ترى أنّ الأبنية الأساسية للعمل

جامعة بشار _____ مخبر الدراسات الصحراوية

الأدبي تتطلب دراسة تزامنية، وقد استقت إياه من المنهج اللساني "وبذلك ظهر مفهوم التزامن ليتولى دراسة العلائق اللغوية داخل نسقها، وبغض النظر عن كل التغيرات⁽¹⁷⁾

4- **موت المؤلف:** نادى القراءة البنيوية بعزل النص عن صاحبه في إطار رفضها للدراسة الخارجية للنص التي ظل الأدب مرتبطا بها، منذ ربح من الزمن ورأت أنه لا جدوى من الاهتمام بالسيرة الذاتية للمؤلف، وعقده النفسية أو غيرها. وأول من نادى بهذه المقولة هو ملارميه، حيث رأى أنّ لغة النص هي التي تتكلم لا المؤلف، فالكاتب يصبح ماض بينما بقي النص حاضرا بصفته كأننا لغويا مستقلا، ثم نادى بها ميشال فوكو وجيرار جينات ورولان بارت الذي قال " اللغة هي التي تتكلم لا المؤلف فالكاتب هي من خلال موضوعية لازمن... وفي ميدان علم اللغة... ليس المؤلف أكثر من المثال الذي يكتب⁽¹⁸⁾

5- **دور القارئ:** إنّ البنيوية هي أولى المناهج النقدية التي أولت اهتماما بالقارئ وأعطته مكانة في النقد باعتباره الكاتب الفعلي للنص وقد عبر عن هذا رولان بارت بقوله "إن ولادة القارئ ينبغي أن تكون على حساب موت المؤلف"⁽¹⁹⁾

لم تبق هذه العلمية الصارمة لتحكم النص وتسير دفته وتستنتج بناء بعيدا عن الملامح السياقية إذ واجهت البنيوية كثيرا من المؤثرات الاجتماعية التي تتحكم في إنتاج العمل الأدبي ولهذا نظر غولدمان إلى الأثر الأدبي عموما على أساس أنّه بنية اجتماعية دالة معزولة عن صاحبه "إنّ سيرة الكاتب قد تكون لها أهمية كبيرة، ومن الواجب مؤرخ الأدب أن يفحصها بعناية ليرى في كل حالة خاصة ما يمكن أن تمدّه به من تعاليم وشروح⁽²⁰⁾ ولو أنّ السيرة لاتعدو أن تكون عاملا جزئيا لا يؤثر، ولا أحد يزعم نكران كون الإنتاجات الأدبية والفلسفية هي من عمل صاحبها⁽²¹⁾

فالبنيوية مذهب حاول قراءة النص الأدبي بآليات استعملت في كثير من العلوم ذات الخصوصية الإنسانية، فأصبحت هذه العلوم تخضع للإحصاء وللحسابات العلمية فكذلك أريد للنص الأدبي وبالتالي تبق البنيوية مذهباً من بين المذاهب التالي قاربت النص وحالت اكتشاف مكنوناته.

إحالات البحث ومراجعته:

(1) مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص، تأليف مجموعة من المؤلفين، دار الحداثة ط1/1985، ص: 5-6.

(2) مداخل الفلسفة المعاصرة تأليف مجموعة من المفكرين، تر/ خليل أحمد خليل دار الطليعة، بيروت، ط1 سنة 1988، ص: 159-160.

- (3) البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، عمر مهيبل، ديوان المطبوعات الجامعية / ط2/ 1993، ص: 11.
- (4) البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر عمر مهيبل، ص: 299.
- (5) المرجع نفسه، ص: 298/299.
- (6) القراءة والحدائثة، مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية، حبيب مونسي -اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص: 141.
- (7) المنهج البنيوي بحث في الأصول والتطبيقات، الزواوي بغورة دار الهدى الجزائر، 2001، ، ص: 12.
- (8) القراءة والحدائثة الحبيب مونسي، ص: 137.
- (9) البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر عمر مهيبل، ص: 13.
- (10) المنهج البنيوي بحث في الأصول والمبادئ. زواوي بغورة، ص: 13.
- (11) المرجع نفسه، ص: 113.
- (12) المرجع نفسه، ص: 14.
- (13) المرجع نفسه، ص: 40.
- (14) نظرية الأدب. شكري عزيز ماضي – دار الحدائثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط1/ 1986، ص: 184.
- (15) مناهج النقد الأدبي المعاصر، صلاح فضل – دار الأفاق العربية القاهرة (د.ط) 1986، ص: 93.
- (16) في نظرية النقد، عبد الملك مرتاض – دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر (د. ط) 2002، ص: 213.
- (17) الخطاب النقدي المعاصر بين السياق والنسق . محمد بلوحي – دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران (د.ط) 2002، ص: 80.
- (18) نظرية الأدب في القرن 20 ك م نيوتن تر/ عيسى علي العاكوب (د.ب) ط1/ 1996، ص: 165.
- (19) المرجع نفسه، ص: 166 .
- (20) في نظرية الرواية، محمد البردي، سراس للنشر، تونس، د ط 1996، ص: 41.
- (21) المرجع نفسه، ص: 41.